فن الرجز وتطوره في العصر الأموي

أ.د. محمد أحمد العامري[1]

ملخص:

لفت انتباهي ما شاع عند الدارسين للأدب والمؤلفين، وعلى نحو مبالغ فيه أن الأدب في العصر الأموي نسخة من الأدب الجاهلي، وارتداد له، ويتسم بالروح الفنية نفسها التي اتسم بها الشعر الجاهلي، ويتماهى معه في روحه وبنائه، وفي كثير من موضوعاته. ورأيت أن هذا ادعاء غير دقيق، مناف للحقيقة ومجاف لها، وقد يكون نتيجة للوثات شعوبية ألحت على المخيلات النقدية العربية، تسربت إليها بهدوء ودهاء؛ دفعني ذلك لتتبع الحقيقة والإسهام في جلائها بأكثر من جهد أدبي ثقافي، هذا البحث أحدها.

بدأ البحث بتمييز الرجز عن القصيد بذكر سماته التي اختص بها دونه. ثم سرد الخصائص الجوهرية التي استقل العصر الأموي بإضافتها لهذا الفن، حتى أصبح فنا قوياً ناضجاً يحكي قوة الأدب العربي في العصر الأموي ونضجه واستقلاله وأصالته. وقد رأيت أن من الخصائص المهمة التي تصور المكانة المزدهرة لفن الرجز في هذا العصر: تطور بناء الأرجوزة، لاسيما البناء الموضوعي، كذلك اختصاص الرجز في هذا العصر بأكبر أعلام الرجز، وأشهر الأراجيز وأقواها وأطولها؛ فأعطيت ذلك اهتماماً خاصاً وحيزاً أكبر.

والمنهجان: الوصفي والاستردادي هما الأنسب مع طبيعة هذا البحث، فأفدت منهما، ومشيت عليهما.

كلمات مفتاحية: تطور، فن الرجز، القصيد، مظاهر التطور، العصر الأموي.

(1) أستاذ الأدب والنقد، جامعة إقليم سبأ

مجلة المهرة للعلوم الإنسانية
مجلة علمية محكّمة نصف سنوية
العدد العاشر- شوال/ذي القعدة ١٤٤٢هـ يونيو ٢٠٢١م
ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

The Art of Al-Rajaz and its Development during the Umayyad Era

Abstract

I get attracted by the debate among scholars and authors of literature that the literature in the Umayyad era was a copy of the Pre-Islamic literature, and its apostasy, and characterized by the same artistic spirit that characterized the Pre-Islamic poetry, and is in linear with its spirit and its construction and even with its subjects. For me, this claim is inaccurate and may give the result of populist documents that have inspired Arab critics, crept to them quietly and cunningly. This claim has encouraged me to trace the truth in more literary and cultural efforts than I can bear and present them in this research .

The research began with distinguishing Al-Rajaz from a poem by mentioning its characteristics that it has of its own. Then we listed the essential characteristics that the Umayyad era has added to this art by adding to this art until it became powerful and mature to narrate the power, maturity, independence and authenticity of Arab literature in the Umayyad era. I came to know that the most important characteristics that depict the flourishing status of the art of Al-Rajz in this age are; the developing of the constructed areas, particularly the substantive construction, as well as the skillful men in this era with the greatest form of the Al-Rajza .

The two approaches; descriptive and recovery are the most suitable with the nature of this research. I have followed and benefited from the two said approaches **.**

Key Words: Evolution, the Art of Al-Rajaz, the Poem, Manifestations of Evolution, the Umayyad Era..

مدخل:

استقلالية الأدب الأموي:

شاع عند الدارسين للأدب والمؤلفين فيه على نحو مبالغ فيه أن الأدب في العصر الأموي نسخة من الأدب الجاهلي، وارتداد له، ويتسم بالروح الفنية نفسها التي اتسم بها الشعر الجاهلي، ويتماهى معه في روحه وبنائه، وفي كثير من موضوعاته.

ونحن وإن كنا لا ننكر ما ذكر جملة وتفصيلاً، لكننا نتحفظ على كثير منه، ونرى في الأمر مبالغة كبيرة أو عجلة في إطلاق الحكم على الأدب العربي في العصر الأموي؛ فإن المتريث الموقِفِ، المتمعن النظرة، الوسَطِيَّ المسلك يدرك بما لا يدع مجالا للشك أنَّ الأدب والأديب العربيين في العصر الأموي أبدعا أيما إبداع، واختطا في مجال الصوغ الأدبي: موضوعا، وبناء، وصورة، وأسلوبا أشياء كثيرة لم يكن للعربي الجاهلي والإسلامي بها سالف عهد، ولا إسهام يعرف.

أمر طبيعي أن يسهم أبناء كل عصر ويضيفوا إلى ما أبدعه أسلافهم، لكن ما يُميز الجديد والتجديد الأدبي في العصر الأموي عما حصل بعد ذلك في العصور اللاحقة ابتداء من العصر العباسي، أن الإضافات التي جاء بها الأديب الأموي تنبع من الأرومة العربية الخالصة، وجذرية الصلة بالروح العربية الفنية الأصيلة، وأنها تتحلى بـ: الإيجابية الفنية، والقوة والجودة، بعيدة عن الضعف والإسفاف.

ما سبق هو سبب اختيار هذا البحث وغايته، والدافع لكتابته.

ويهدف البحث إلى:

- إيضاح العلاقة بين الرجز والشعر.
- تتبع مراحل تطور فن الرجز.
- إبراز مظاهر تطور فن الرجز في العصر الأموي.
- التعريف بأعلام فن الرجز، وأشهر نماذجه.

والمناسب لطبيعة هذا البحث: هما المنهجان: الوصفي والاستردادي.

وسيتم تناول البحث تحت المحاور الآتية:

المحور الأول: بين الرجز والشعر.

المحور الثاني: مظاهر تطور الرجز في العصر الأموي.

المحور الثالث: أشهر الرُّجاز والأراجيز في العصر الأموي.

مجلة المهرة للعلوم الإنسانية
مجلة علمية محكّمة نصف سنوية
العدد العاشر- شوال/ذي القعدة ١٤٤٢هـ يونيو ٢٠٢١م
ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

وثمة دراسات سابقة تناولت فن الرجز ضمن حديثها عن الأدب العربي القديم، أو جاءت مستقلة. وما يميز هذه الدراسة: هو تركيزها على المحورين الأولين: إبراز الفروق بين الرجز والقصص. والتركيز الكبير على إبراز ما حصل للرجز من تطور كبير في العصر الأموي. واشترك مع غيره في الحديث عن: مراحل تطور الرجز، وعن أشهر الرجازين والأراجيز؛ لكنه تميز في أنه وظف هذين الأمرين في إبراز القضيتين السابقتين.

المحور الأول: بين الرجز والشعر

اتحاد نقطة الانبعاث:

يعطي الرجز صورة عن مرحلة من مراحل التطور الشعري، فالأراجيز القديمة التي وصلتنا كانت تقريبا هي صورة الشعر قبل أن يتطور، ثم أصاب التطور التدريجي جوانب من الرجز فظهرت القصيدة الناضجة إلى جانب تلك الصورة من الرجز، ولا يعلم متى حصل ذلك تحديداً، وقد أدرك العرب ذلك فزعموا أن الشعر "كان قبل المهلهل رجزاً وقطعاً، فقصَّدَه المهلهل، ثم جاء امرؤ القيس فافتنّ به[1]"، وإن كنا لا نسلم أبدا أن امرأ القيس وخاله المهلهل هما من أنضجا الشعر, بل الأمر في تصورنا أسبق من ذلك بكثير، لكن طبيعة التطور تلك تظل صحيحة أو ممكنة، فقد تطور من الرجز فن الشعر، وتميز بالطول وبالتنوع النغمي، في حين ظل الرجز على شكله الإيقاعي، وعلى وظيفته، وحجمه البنائي القصير: بـ"مقدار ما تمتح الدّلاء، أو يتنفس المنشد في الحداء"[2]، وإذا خاصم أو شاتم أو فاخر يقول: البيتين أو الثلاثة من الرجز ونحو ذلك.

الرجز غير الشعر:

على الرغم من وحدة المنشأ المتوقع للشعر والرجز، فقد استقل كل منهما بكثير من الخصائص؛ لأجلها فرق العرب بينهما: فسموا هذا رجزا وذاك شعرا أو قصيدا، وقالوا شاعر وراجز، وقصيدة وأرجوزة. ولا يطلقون على القصيدة أرجوزة، ولا على الأرجوزة قصيدة إلا قليلاً، ويكون ذلك منهم توسعا أو تجوزا، جاء في العمدة لابن رشيق[3]: "والراجز قلما يقصد، فإن جمعهما كان نهاية، نحو أبي النجم؛ فإنه كان يقصد، وأما غيلان(ذو الرمة) فإنه

(1) تاريخ آداب العرب: 19/3.
(2) المصدر نفسه: 19/3
(3) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: 185/1.

كان راجزاً، ثم صار إلى التقصيد، وسئل عن ذلك فقال: رأيتني لا أقع بين هذين الرجلين على شيء، يعني العجّاج وابنه رؤبة، وكان جرير والفرزدق يرجزان، وكذلك عمر بن لجأ كان راجزاً مقصّداً، ومثله حميد الأرقط والعماني أيضاً، وأقلهم رجزاً الفرزدق ". وقالوا أيضا[1]: "وكان أبو النجم ربما قصد فأجاد، ولم يكن كغيره من الرجاز" الذين لم يحسنوا أن يقصدوا.

مما يتميز به الرجز عن الشعر:

ثمة أمور يتميز بها الرجز عن القصيد من حيث: صلته بواقع المنتج، وطبيعة الأداء، والجانب الموسيقي، وطبيعة البناء، والمستوى اللغوي.. وغير ذلك، نوجز شيئاً من ذلك في النقاط الآتية:

1- يتحقق الارتباط بين وزن الرجز ومعناه على نحو أكبر منه في الشعر، وأصدق؛ ربما لأنه احتفظ بماهيته ووظيفته الأوليين إلى حد كبير؛ فهو مرتبط بنفسية منتجه، ومعبر عن حالتها، كما أنه يحكي واقعه ويصوره.

2- الرجز ألصق بالحياة العملية؛ لذلك نجد أنهم كانوا يتراجزون على أفواه القُلُب، وفي بطون الطرق، وعند مجاثاة الخصم، وساعة المشاولة، وفي نفس المجادلة[2] ونحو ذلك.

3- الرجز أصدق اتصالاً بنفسية قائله، وأعمق صلة بأحاسيسه ومشاعره من القصيد؛ بل يكاد يكون ترجمان عما تكنه نفس الراجز، وقراءة لصفحاته الداخلية؛ ولهذا قل فيه تكلف الأعراف الفنية التي التزمتها القصيدة.

4- كثرة اقتران حركات البدن وحركات النفس عند أدائه، ولعل هذا من آثار قربه من الحياة العملية، ومن دلائل عمق صلته بنفسية قائله.

5- عدم لزوم التهيؤ لنظمه والتهيب لقوله؛ لشيوع قوله من الجميع تقريباً، وعدم لزوم التخصص، فكانوا يرسلونه كلاماً كالكلام؛ ولذلك كثر الرجز عند العرب قديماً، وساعد على ذلك سهولة النظم عليه، حتى سمي حمار الشعر.

6- ومن الفروق الفنية بين الشعر والرجز التي نذهب إليها: أن في الرجز قرباً وصلة بالجانب النثري الخطابي في الخصائص والوظائف، ومن قرائن ذلك:

(1) طبقات فحول الشعراء: 749/2.
(2) تاريخ آداب العرب: 20/3.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

أ- تقارب: أحوال ومقتضيات ومواطن الرجز والخطابة التي نقلناها عن الجاحظ آنفاً (..عند مجاثاة الخصم، وساعة المشاولة، وفي نفس المجادلة..)

ب- كثرة تصرف بحر الرجز، ومرونة خصائصه، واستحمار الرجازين له.

ج - أحس العرب أن الرجز يؤدي وظيفة بيانية لغوية، قال الجاحظ[1]: "كانوا يُرَوُّون صبيانهم الأرجاز، ويعلمونهم المناقلات ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب؛ لأن ذلك يفتق اللهاة ويفتح الجرم " وهذه خصائص أقرب إلى حقل النثر، وألصق بالخطابة.

د- غالب الأرجاز القديمة، لا يكاد يفرق بينها وبين الكلام المنثور سوى الوزن.

هـ- يمكننا القول إن الرجز قديما كان أشبه بالشعر العامي نظما وتداولا، لكن بلغة فصحى.

المحور الثاني: مظاهر تطور الرجز في العصر الأموي

ما سبق كان حال الرجز السائد قبل العصر الأموي، باستثناء تغيير يسير في صدر الإسلام جاء به الأغلب العجلي، حيث طوّله شيئاً يسيراً، ثم لم يلبث أن طرأ عليه من مظاهر التطور والتجديد في العصر الأموي أمور كثيرة غنية ومتنوعة: بناء، ولغة، وقيمة، وغاية، وكيفا، وكما.

وكان العجاج التميمي أول من رفع الرجز وشرفه، وفتح أبوابه، وكان يشبه حال العجاج مع الرجز بامرئ القيس مع الشعر، ثم جاء ابنه رؤبة بن العجاج ففاقه وأكمل مشواره، وإليه انتهت غاية الرجز، وعنده توقفت إمامته.

من مظاهر التطور والتجديد في العصر الأموي:

1. طالت نصوصه جدا، بعد أن كانت نتفا ومقطوعات قصيرة.

2. استقل به أناس متخصصون، وبرز له أعلام حملوا لواءه، أي انتقل من حالة الشيوع إلى التخصص والاحتراف، أيضاً تميزت منه نماذج ذاعت واشتهرت، وسنفرد لهذه القضية المحور الثالث.

(1) البيان والتبيين: 227/1.

3. اتسمت لغته بالعمق والتعقيد، وأفاد منه أئمة اللغة كثيرا في شواهد قواعدهم، بعد أن كان قبل العصر الأموي سهلاً مباشراً، أشبه بكلام الناس اليومي.

4. نتج عن بعض ما سبق أو أكثره: أن ضاق ميدانه، وتراجع شيوعه، وقل إنتاجه بعد العصر الأموي كثيراً مقارنة بالأرقام التي تذكر مع الرجز القديم، من ذلك ما قيل أن الأصمعي كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة جاهلية أو بدوية، ونقل الجاحظ عن أبي عبيدة، قال[1]: اجتمع ثلاثة من بني سعدٍ يراجزون بني جعدة، فقيل لشيخٍ من بني سعد: ما عندك؟ قال: أرجز بهم يوماً إلى الليل لا أفتج. وقيل لآخر: ما عندك؟ قال: أرجز بهم يوماً إلى الليل لا أنكف؛ فقيل للآخر الثالث: ما عندك؟ قال: أرجز بهم يوماً إلى الليل لا أنكش.

لكن ذلك التراجع كان في الكم والشيوع والإنتاج، أما في الكيف والبناء فقد قفز فيهما قفزة نوعية كما سيأتي.

ومن أسباب ذلك التراجع الكمي فضلا عما سبق: انتقال الشعر من البادية إلى المدينة، وكون كثير من الشعراء مولدين.

5. ومن التجديدات الجوهرية التي طرأت على الرجز في العصر الأموي، وجعلت منه شيئا جديدا أو كادت: أن ارتقى مستواه الفني، وعلا شأنه، وحاول الرجاز إلحاق الأرجوزة بالقصيدة المتميزة في بنائها، كما سيأتي:

تطور بناء الأرجوزة في العصر الأموي:

سبق الذكر أن الأراجيز قديما كانت مقطوعات يسيرة، تقال ارتجالاً في موضوع آنٍ محدود، لكن هذا الأمر تغير كثيراً في العصر الأموي، فقد شهد بناء الرجز تطوراً كبيراً، في نوعيه: الهيكلي والموضوعي:

أ. ففي منهج بنائه الهيكلي: التزم الرجاز في بناء الأرجوزة: المقدمة التقليدية من بكاء الأطلال والنسيب ووصف الرحلة، وتعدد الموضوعات، ووسائل التخلص، إلى غير ذلك مما يبنى عليه القصيد.

(1) البيان والتبيين: 267/3. أفتج: أتعب أنكف: أنقطع. لا أنكش: لا آتى على ما عندي.

مجلة المهرة للعلوم الإنسانية
مجلة علمية محكّمة نصف سنوية
العدد العاشر- شوال/ذي القعدة ١٤٤٢هـ يونيو ٢٠٢١م
ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

ب. وفي بنائها الموضوعي: وظفوا الرجز في الفخر والهجاء والمدح والزهد وفي الحكايات الظريفة بقصد التسلية والإضحاك، وفي غير ذلك من الأغراض[1]:

- فمن الرجز في معرض الفخر قول الزفيان[2]:

إني إذا ما صاحبي استبدا. بالأمر من دوني واسمغدا[3]
أتركه وسط الرجال عبداً موطناً على الهوان فردا
يرتكب الغي ويخطى الرشدا إذا تميم حشدتْ لي حشداً
كزاخر البحر إذا ما مدا لم يرزأ الأعداء مني رمدا
على عناجيج الخيول جردا

- ومن الرجز المنظوم في الزهد والنصح والحكم قول رؤبة مخاطبا ابنه عبد الله[4]:

إنك لا تدري غداً ما في غد وليلة تطرد إن لم تطرد
والقوم يهوون حيال المورد والله لا يخلف قول الموعد
والمرء مرقوب بكل مرصد يروح في حبل البلى ويغتدي
ومن أمام المرء مرداه الردى واصدق إذا ما قلت قولاً واقصد
فليس من جار كهادٍ يهتدي إن السعيد عامل للأسعد
والرشد فاعلمه طريق الأرشد وزاد تقوى أفضل التزود
إني رأيت الدهر بالتردد ينقض إمرار الشباب الأجرد
نقضك إمرار المغار المحصد

(1) ينظر: الشعر في صدر الإسلام والعصر الأموي:299- 301.

(2) معجم الشعراء:298. والزفيان الراجز اسمه عطاء بن أسيد أحد بني عكوافة بن سعد بن زيد مناة. سمي الزفيان بقوله: والخيل تزفي النعم المقعورا (ت125هـ).

(3) مسمغد: منتفخ من الغضب وأصله من غدة البعير. وتروى: واسمعدا.

(4) شرح ديوان رؤبة بن العجاج المنسوب لأبي سعيد الضرير: 2/ 402-403.

على خلاف المألوف عنه نجد رؤية في نصه هذا واضح اللغة، مرهف الحس، هادئ النبرة، ولعل ذاك من آثار حالة الزهد التي لبسته ساعتها.

– ومن الرجز في المديح قول أبي الشمردل[1]:

لا يسبق النائل منه المنكرُ

فتى شتاء يستحي ويخفر

– وقول أبي نخيلة الحماني يمدح مسلمة بن عبد الملك[2]:

مَسْلمُ يا مسلمة الحروب

أنت المصفى من أذى العيوب

مصاصة من كرم وطيب

لولا ثقاف ليس بالتذبيب

تفري به عن حجب القلوب

لأمست الأمة شاء الذيب

فالراجز وظف نصه هذا بمدح الأمير الأموي بالخلال التي تتعاورها قصيدة المديح، وهي: الشجاعة والكرم، والابتعاد عن المثالب والمعايب،..

– ومن الرجز الأموي الذي يقال في ترقيص الطفل الصغير، وهو غرض معروف في الجاهلية لاسيما على لسان الأمهات حين يلاعبن صغارهن قول أبي نخيلة أيضاً في ابنة له[3]:

يا بنت من لم يك يهوى بنتا

ما كنت إلا خمسة أو ستا

حتى حللت في الحشى وحتى

(1) شعر الشمردل اليربوعي:329.

(2) شعر أبي نخيلة الحماني:84-85.

3() المصدر نفسه: 86.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

فتـتِّ قلـبي مـن جـوى فانفتـا

لأنـت خـير مـن غـلام بتـا

يصـبح سـكرانا ويمسـي سـبتا

- وقال يتغزل بفتاة طويلة رشيقة القوام[1]:

هـزت قوامـا يجهـد العرضـيا

هـز الجنـوب النخلـة الصـفيا

التميز في البناء الموضوعي للرجز:

- التميز الكبير في البناء الموضوعي للرجز في العصر الأموي يبرز في اتجاهين، هما:

أ. الطرديات ووصف حيوان الصيد.

ب. الرجز القصصي.

ولعل التميز الموضوعي الأكبر للرجز كان بحق في مجال الطرديات ووصف حيوان الصيد، وكثير منه يأخذ منحى قصصياً، ولا أكون مبالغاً إذا قلت: إن الرجز في هذا الموضوع برز أكثر من القصيد، بل لعل الرجز هو من ألهم القصيد وصف الصيد وشعر الطرديات:

فمن الطرديات ووصف الصيد قول الشمردل بن شريك اليربوعي(ت80هـ) تقريباً[2]:

قـد أغتـدي والصـبحُ في حجابـه والليـلُ لم يأو إلى مآبِـهِ

مُعـاودٍ قـد ذلّ في إصـعابه قـد خَـرَّق الصِّـفارَ مـن جِذَابـهِ

وعَرف الصوت الـذي يُدعى بـه ولَمْعَـةَ المُلْمِـع في أثوابـه

فقلْـتُ للقـانِص إذ أتـى بـه قبـل طُلـوع الآل أو سـرابه

ويْحَـكَ مـا أبصـر إذ رأى بـه مـن بَطْـنِ مَلحـوبٍ إلى لبابِـه

(1) شعر أبي نخيلة الحماني: 180.

(2) شعر الشمردل اليربوعي: 324-325.

قَشْـعاً تـرى الثِّبْـتَ مـن خبابِـه فـانقضَّ كـالجلمود إذ عـلا بـه
غضـبان يـوم قِنْيـةٍ رمـى بـه فهـنّ يلقـيْن مـن اغتصـابه
تحـت جديـد الأرض أو ترابـه مـن كـلِّ شَـحَّاج الضُّحى ضـغّابه
إذ لا يـزال حربـه يشـقى بـه منتـزع الفـؤاد مـن حجابـه
جـاد وقـد أنشـب في إهابـه مُخالبـاً ينشـبْنَ في إنشـابه
مثـل مُـدَى الجـزّار أو حِرابـه كأنمـا بالحلـق مـن خضـابه
عصـفرة الفـؤاد أو قضـابه حـوى ثمـانين علـى حسـابه
مـن خَـرَبٍ وحُـزَّزٍ يعلـى بـه لفتَيـةٍ صَـيْدُهُمُ يـدعى بـه
واعَـدَهمْ لمنـزل بِتْنـا بـه يطهـى بـه الخِـرْبان أو يُشْـوَى بـه
فقـام للطـبخ ولاحتطابـه أروع يهتـاج إذا هجْنـا بـه

هذه الأرجوزة الطردية أخذت منحى قصصياً: فهي تحكي ليس عملية الصيد فقط، بل ابتدأت من اللحظة الزمنية الأولى التي أخذ فيها الصياد بالتهيؤ للصيد، وتدرج الأمر بالخروج والتربص، ووصف عملية الانقضاض. ولم يبخل على جارحته التي يصيد بها بصور عدة تبين قوة مخالبه، وتفانيه في الافتراس. ويظهر الجانب النفسي متخللاً لكنه جاء هادئاً متسللاً، وبرز فجأة في الأخير في صورة الفتية الجوعى المنتظرين للحم الصيد، المهيئين للشيّ. وعندهم حطت القصة رحلها الأخير.

ولعل الشمردل بن شريك هو من ألهم شعراء الطرديات هذا النمط، لاسيما أبا نواس.

ولأبي نخيلة في طرد عشر نعائم يصفهن[1]:

أنعـت مهـراً سَـبِطَ القـراة ورداً طِمِـرًّا مـدمج السـراة
يغـدو بنهـد في اللجـام عـات نعائمـا عشـراً مطـردات
صُـكَّ العراقيـب هَجَنَّعَـاتِ فانصـاع وانصـعن موليـات
مـا كـان إلا هاكَـه وهـات حـتى اجـتمعن متناغصـات

(1) شعر أبي نخيلة الحماني: 91- 92.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

بالسهب والغدر من الحماة واختل حِضْنَا هيقةٍ شوشات
فانعقرت من آخر الهيقات بغير تكبير ولا صلاة
كأنها خالفة السراة

قام هذا النص على ثنائيات: المهر/النعائم، القوة/الضعف، الهجوم/مقاومة يسيرة ثم الاستسلام.

وله في الطرد أراجيز كثيرة مشهورة، منها أيضاً اللامية التي يقول فيها[1]:

فانصاع يسعى بالصعيد الهايل يلحب عن ذي ميعة معاجل
حتى دنا من وهج القساطل من ذات زفٍّ ساقط الخمايل
فاختلفا تحت جناح المايل بضربةٍ حثيثةٍ في الصاعل
منقوشة الرِّقين والخصايل فهو مقيط كمقاط الفايل

– ويبدو لي أن ظاهرة نظم الرجز القصصي خصيصة أموية لم تبرز عند الرجاز قبلهم، ونلحظ فيه شيئاً غير قليل من التطور السريع كما في أرجوزة ردين بن عبس الفقعسي التي قالها يحكي قصته مع بزاز فارسي في سوق الكوفة اسمه سالم بن مهران طالبه بدين له عليه طال أمده، فما إن وافى هذا الأعرابي الكوفة، وسمع به سالم جاءه وجماعة من أهل السوق يستنجزه حقه، فأنكره رديني، فاستحلفه سالم بالطلاق فحلف له ليخلي سبيله، قال في ذلك:

لما أتاني سالم بالطرس مبتكرا قبل طلوع الشمس
أطلس في وسط ذئاب طلس شيوخ سوء من نتاج الفرس
يرون للأعراب كل نحس جنسهم الأعلاج غير جنسي
فكلموني بكلام الخرس وهددوني ساعة بالحبس
حتى إذا خفت ذهاب نفسي من لكزة تابعة لرفس
قلت لهم قولا مبين اللبس يقبله كل غبي نكس
أعطيكم المال بغير بخس وغير نقصان وغير وكس

(1)شعر أبي نخيلة الحماني: 158- 159.

من جلب جاء غداة أمس فقال شيخ منهم كالقس
ذو لحية وافرة كالترس كأنها مخلوقة من برس
هيهات أن تفلت يا بن عبس إلا بوزن أو يمين غمس
فقلت لا والله باري النفس أحلفها حتى أزور رمسي
خديعة أشوبها بدنس فحين طال حبسهم وحبسي
أفلت منهم بطلاق عرسي

يتضح في هذه الأرجوزة ما ذكرناه سالفاً من شدة صلة الرجز بالواقع المعاش. وهي قراءة لخلجات نفس الراجز سطرها بأحرفه، وكان واقعياً على نحو يبعث لدى القارئ التسليم المطلق بما جرى فيها من أحداث.

الراجز في هذا النص/القصة استوفى كثيرا من المقومات الفنية للقصة من: سرد الأحداث، والتدرج فيها، ورسم الشخصيات، وإجراء الحوار، والعقدة، والحل، كل ذلك بلغة واضحة تخلو من الغرابة والتقعر. كما أن هذا النص اتسم بوحدة عضوية نامية متدرجة، وشديدة التماسك.

ومن الرجز القصصي قول الشمردل بن شريك، فيما يروى عن أبي عبيدة قال: كان ذئب قد لازم مرعى غنم للشمردل، فلا يزال يفرس منها الشاة بعد الشاة، فرصده ليلة حتى جاء لعادته ثم رماه بسهم فقتله وقال فيه[1]:

هل خُبِّرَ السِّرحانُ إذ يستخبِرُ عني وقد نام الصِّحَاب السُّمَّرُ
لما رأيت الضَّأنَ منه تنفِر نهضْتُ وسْنانَ وطارَ المِئْزرُ
وراع منها مَرِحٌ مُسْتَبْهِرُ كأنه إعصار ريح أغبرُ
فلم أزل أطردُه ويعكر حتى إذا استيقنْتُ ألا أعذرُ
وإنّ عَقْرَى غنمِي ستكثر طار بكفي وفؤادي أوجر
ثُمَّتَ أهويْتُ له لا أُزجَر سهما فولّى عنه وهْوَ يعثرُ
وبتُّ ليلي آمناً أُكبِّرُ

(1) شعر الشمردل اليربوعي: 321.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

المحور الثالث: أشهر الرُّجاز والأراجيز في العصر الأموي

سبقت الإشارة إلى أن من أبرز مظاهر تطور الرجز، وأوضح ميزاته التي حظي بها في العصر الأموي قضيتان:

أ. برز فيه أكبر الرجاز في تاريخ العربية بلا منازع.

ب. شهد هذا العصر أرقى الأراجيز وأطولها وأفضلها بلا خلاف.

– فيما يتعلق بالقضية الأولى: لم يظهر قبل العصر الأموي رجاز متخصصون في الرجز، بما يعنيه ذلك من دلالة، ولا يخرق هذا الأمر بعض ما قيل عن الأغلب العجلي؛ فهو فرد لا يشكل ظاهرة، هذا إن صح بعض ما بولغ في شأنه مع الرجز. والذي يبدو أنه يمكن أن يكون له مع الرجز شأن قياسا بحال الرجز مع سابقيه ومعاصريه، لكن إذا ما قيس الأغلب برجاز العصر الأموي فسيختلف الأمر، ولن يجري في حلبتهم، على أنه لم يتخصص بالرجز وحده، فقد كان شاعراً أيضاً.

أشهر رجاز العصر الأموي هم أنفسهم أئمة فن الرجز في العربية. ومنهم العجاج التميمي الذي كان أول من رفع الرجز وشرفه، وفتح أبوابه، وكان يشبه حال العجاج مع الرجز بامرئ القيس مع الشعر، ثم جاء ابنه رؤبة بن العجاج ففاقه وأكمل مشواره، وإليه انتهت غاية الرجز، وعنده توقفت إمامته كما أسلفنا.

1. العجاج: الراجز المشهور عبد الله بن رؤبة التميمي، يكنى أبا الشعثاء، ويعرف بالعجاج. وكان يقال له عبد الله[1]. وسمي بالعجاج لقوله: حتى يعُجَّ عِندَهَا مَنْ عَجْعَجَا[2]. قيل توفي (90هـ)، ولعله توفي بعد ذلك، فله أخبار مع سليمان بن عبد الملك(ت99هـ) من ذلك أن سليمان قال له[3]: "إنك لا تحسن الهجاء، فقال: إن لنا أحلاماً تمنعنا من أن نَظلم، وأحساباً تمنعنا من أن نُظلم، وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم؟"

قال عنه أبو عبيدة: كان العجاج أول من أطال الرجز[4].

(1) الإصابة في تمييز الصحابة: 68/5.
(2) سمط اللآلي في شرح أمالي القالي:56/1.
(3) تاريخ دمشق: 133/28.
(4) الوافي بالوفيات :100/14.

2. رؤبة بن العجاج: رؤبة بالهمز، ومن معانيها: قطعة من خشب يشعب بها الإناء. وهو ابن العجاج المذكور قبل. كان رؤبة من رجاز الإسلام وفصحائهم، والمذكورين المقدمين منهم. بدوي نزل البصرة، وسمع أباه. عاش جل حياته في العصر الأموي، ومدح بني أمية، وامتد عمره إلى صدر الدولة العباسية، ومات في أيام المنصور سنة(145هـ). وهو وأبوه أرجز الناس، وهو أكثر رجزا من أبيه وأفصح منه. وكان أطول معاصريه رجزا، وأغربهم لفظاً، وأغمضهم لغة، وقد أخذ عنه وجوه أهل اللغة، وكانوا يقتدون به ويحتجون برجزه ويجعلونه إماماً، وكان رأسا في اللغة، ونرى أنه إمام أهل الرجز في العربية وأكبرهم، وأنه في ذلك مفخرة للعصر الأموي، وأحد الأدلة على رقي اللغة والأدب ونضجهما في هذا العصر؛ ولا غرو أن قَالَ عنه الخليل بْن أَحْمَد لما توفي: "دفنا الشعر واللغة والفصاحة اليوم"[1].

ومن رجز رؤبة المتسم بالوضوح قوله[2]:

إذا العجـوز غضـبت فطلـق
ولا ترضَّـــاها ولا تملـــق
واعمـد لأخرى ذات دلٍ مونـق
لينـة المـس كمـس الخـرنق
إذا مضـت مثـل السـياط المشـق

وله شعر قليل منه[3]:

أيهـا الشـامت المعـير الشيـ ـب أقلـنْ بالشـباب افتخـارا
قـد لبسـتُ الشباب غضًّا طريفاً فوجـدت الشـباب ثـوباً معـارا

3. أبو النجم العجلي: الفضل بن قدامة العجلي، أبو النجم، من بني بكر بن وائل. ممن جمع الرجز والشعر، فهو من أكابر الرجّاز، ومن أحسن الناس إنشاداً للشعر. نبغ في العصر الأموي، وكان يحضر مجالس الخلفاء

(1) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم:188/8.
(2) معجم الأدباء: 1312/3.
(3) المصدر نفسه:1312/3.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

الأمويين، وأشهر أخباره مع عبد الملك بن مروان(ت86هـ) وولده هشام (ت125هـ). قال أبو عمرو بن العلاء: كان ينزل سواد الكوفة، وهو أبلغ من العجاج في النعت[1]، ورجزه أوضح من رجز العجاج ورؤبة، كما في قوله[2]:

والمـــرء كالحالـــم في المنـــام يقـــول إني مـــدرك أمامـــي
في قابـــل مـــا فـــاتني في العـــام والمـــرء يدنيـــه مـــن الحمـــام
مـــر الليـــالي الســـود والأيام إن الفـــتى يصـــبح للأســـقام
كـــالغرض المنصـــوب للســـهام أخطـــاه رام وأصـــاب رامـــي

قضى حياته كلها في العصر الأموي، وتوفي قبيل نهاية هذا العصر في سنة (130هـ). تميز أبو النجم عن العجاج وابنه رؤبة بأمور منها: إجادته الشعر إلى جانب الرجز، ووضوح رجزه، وتفوقه في النعت، كما مر في قول أبي عمرو بن العلاء.

– **أما أشهر الأراجيز:** فقد اتفقت الأقوال على أن أشهر الأراجيز في العربية ثلاث أرجوزات كلها أموية، وهي للثلاثة الرجاز السابقين. قالوا: وأرجز الرجز ثلاث أرجوزات[3]:

– ليس في الجاهلية والإسلام، أمدح من أرجوزة العجاج (قد جبر الدين الإله فجبر) وهي أكثر من مائتي بيت موقوفة القوافي، ولو أطلقت قوافيها كلها لكانت منصوبة، مدح بها عمر بن عبيد الله بن معمر، وكان عبد الملك بن مروان قد وجّهه لقتال أبي فديك الحروريّ فأوقع به وبأصحابه، ومنها[4]:

قـد جـبر الـدينَ الإلـهُ فجـبر وعـوَّر الـرحمن مـن ولَّى العـور
فالحمـد لله الـذي أعطـى الحـبر مـوالي الحـقّ إنِ المـولى شـكر
حـول ابـن غـراء حصـان إن وتـر فـاز وإن طالـب بالـرغم اقتـدر
هـذا أوان الجـدّ إذ جـدّ عمـر وصـرّح ابـن معمـر لمـن ذمـر
وأنـزف العـبرة مـن لاقـى العـبر طـال العنـا وزايـل الحـقُّ الأشـر

(1) الأعلام: 151/5.
(2) ديوان أبي النجم العجلي: 246-247.
(3) الأوائل: 436.
(4) ديوان العجاج، رواية الأصمعي: 63 وما بعدها.

لا قــدح إن لم تــور ناراً بهجــر ذات ســناً يوقــدها مــن افتخــر

– قالوا أيضاً: ولا أرجوزة في وصف رام وقابض وحمير أرجز من أرجوزة رؤبة[1]:

وقـاتم الأعمـاق خـاوي المخـتَرَقْ مشــتبه الأعــلام لمَــاع الخَفَــقْ
يكل وفد الريح من حيث انخرق شـأزٍ بمـنْ عَـوَّهَ جَـدْبِ المُنطلـق
ناء مــن التصبيــح نائــي المغتبــق تبــدو لنــا أعلامــه بعــد الغــرق
أَلَّـفَ شَـتَّى لَـيْسَ بالرَّاعـي الحَمِـقْ قَبَّاضَــةٌ بَــيْنَ العَنيــفِ واللَّبِــقْ[2]

– ولا أرجوزة في وصف الإبل ورعاتها ورعيها أرجز من أرجوزة أبي النجم[3]:

الحمــــد لله العلــــي الأجــــلل أعطــى فلــم يبخــل ولم يُبَخَّــل
تبقلــــت مــــن أول التبقــــل بــين رمــاحَيْ مالــك ونهشــل
حَــــتَّى إذا الشَّــــمْسُ اجتلاَهــــا المُجْتَلى بَيْنَ سِمَاطَيْ شفَقٍ مُهوَّلِ
فَهِـيَ علـى الأُفْـقِ كَعَـيْنِ الأَحْـوَلِ صَـغْوَاءَ قـد كـادَتْ ولَمَّـا تَفْعَـلِ

وكان أبو عمرو بن العلاء يفضلها على الجميع، يقول[4]: أشعر أرجوزةٍ قالتها العرب أرجوزة أبي النجم "**الحمد لله الوهوب المجزل..**"، قال ولم أر أسير منها، لم أر غريبا إلا وهو ينشدها أو بعضها.

وقد فضلت هذه الأراجيز الثلاث؛ لأنها: جمعت جودة مع طول، فهي تمثل مرحلة النضج والصورة المكتملة للرجز، ويمكن القول إنها للرجز كالمعلقات للشعر.

خلاصة البحث ونتائجه:

لا تخطيء عين الناظر المتبصر في حالي فن الرجز: (في العصر الأموي، وقبله) أنه ارتقى في العصر الأموي رقياً كبيراً في جميع مناحيه وما يتعلق به، واكتسب في هذا العصر كثيرا من الخصائص الجديدة، وحظي بتغيرات كثيرة إيجابية أهلته لأن يعد من مواطن التجديد المشرقة التي أضفاها وأضافها العصر الأموي في أدب العربية الخالد.

(1) شرح ديوان رؤبة بن العجاج المنسوب لأبي سعيد الضرير: 1/ 98- 110.
(2) وفد الريح: أولها. شأز: الغليظ. عوه: أقام قباضة : دَخَلَتِ الهاءُ للمُبالغة ، القَبْضُ : النَّزْوُ.
(3) ديوان أبي النجم العجلي: 337-363.
(4) تاريخ دمشق: 355/48.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

وفي الختام نخلص إلى النتائج الآتية:

1. يمكن أن يكون الرجز والشعر قد اتحدا في نقطة الانبعاث والنشأة، لكنهما لم يلبثا بعد ذلك أن افترقا، وأصبحا فنين مستقلين عن بعضهما.
2. شهد بناء الرجز في العصر الأموي تطوراً كبيراً، في نوعيه: الهيكلي والموضوعي.
3. التميز الكبير في البناء الموضوعي للرجز في العصر الأموي يبرز في اتجاهين، هما: الطرديات ووصف حيوان الصيد، والرجز القصصي.
4. ظاهرة نظم الرجز القصصي خصيصة أموية لم تبرز عند الرجاز قبلهم، ونلحظ فيه شيئاً غير قليل من التطور السريع.
5. رؤبة بن العجاج إمام أهل الرجز في العربية، وأكبرهم على الإطلاق، ولا غرو أن قَالَ عنه الخليل بْن أَحْمَد لما توفي: "دفنا الشعر واللغة والفصاحة اليوم". وهو بذلك مفخرة للعصر الأموي، وأحد الأدلة على رقي اللغة والأدب ونضجهما في هذا العصر.
6. الإضافات التي جاء بها الأديب الأموي تنبع من الأرومة العربية الخالصة، وهي جذرية الصلة بالروح العربية الفنية الأصيلة.
7. الأدب والأديب العربيين في العصر الأموي أبدعا أيما إبداع، واختطا في مجال الصوغ الأدبي: موضوعا، وبناء، وصورة، وأسلوبا أشياء كثيرة لم يكن للعربي الجاهلي والإسلامي بها سالف عهد، ولا إسهام يعرف.
8. عدم صواب ودقة ما شاع عند دارسي الأدب والمؤلفين: من أن الأدب في العصر الأموي نسخة من الأدب الجاهلي، وارتداد له ويتماهى معه، ويتسم بالروح الفنية نفسها التي اتسم بها الشعر الجاهلي.

قائمة المصادر والمراجع:

1. البكري أبو عبيد، سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
2. الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ.

3. الجمحي، ابن سلّام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.

4.ابن الجوزي، أبو الفرج، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1412 هـ - 1992م.

5. الحماني، شعر أبي نخيلة، جمع وتحقيق: عدنان عمر الخطيب، مراجعة د. فيصل الحفيان، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ط1، 1422هـ - 2001م.

6. الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1414 هـ - 1993م.

7. الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي.

8. ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1401 هـ -1981م.

9. الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002 م.

10. الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ- 2000م.

11. العجاج، ديوان، رواية الأصمعي، تحقيق: د. عزة حسن، دار الشروق العربي، بيروت- لبنان، حلب- سوريا، 1416هـ،1995م.

12.ابن العجاج، رؤبة، شرح الديوان المنسوب لأبي سعيد الضرير، أطروحة دكتوراه، خالد جحوظ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب، 1427هـ - 2007م.

13. العجلي، أبو النجم، ديوان، شرح وتحقيق: د. محمد أديب عبد الواحد جمران، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1427هـ -2006م.

14.ابن عساكر أبو القاسم، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، 1415هـ - 1995م.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

15. العسقلاني، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ.

16. العسكري، أبو هلال، الأوائل، دار البشير، طنطا، مصر، ط1، 1408هـ.

17. المرزباني، معجم الشعراء، تصحيح وتعليق: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1402 هـ - 1982م.

18. هدارة، محمد مصطفى، الشعر في صدر الإسلام والعصر الأموي، دار النهضة العربية، القاهرة.

19. اليربوعي، شعر الشمردل، دراسة وتحقيق: نوري حمودي القيسي، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الثامن، الجزء الأول، ربيع ثاني 1392هـ - 1972م.